

علم النفس

الاسئلة المحتمل ورودها

- هل يمكن التجريب على النفس الإنسانية؟
- هل يمكن دراسة النفس البشرية دراسة موضوعية ودقيقة؟
- هل يستطيع دارسي النفس البشرية تجاوز جميع العوائق لجعل هذه الدراسات علماً؟

1) المقدمة:

بعد القرن السابع عشر ظهر ما يسمى بالمنهج التجريبي وطُرحت فكرة التجريب على المواد بمختلف أنواعها، فطبق هذا المنهج على المادة الجامدة وظهرت الفيزياء والكيمياء، وطبق على المادة الحية وظهرت البيولوجيا، وبعد نهاية القرن التاسع عشر أراد بعض العلماء التجريب على النفس البشرية، وتعرف الدراسات النفسية على أنّها «مجموعة دراسات وأبحاث عقلانية تتناول الطواهر النفسية سلوك الإنسان بالبحث» لكن حول محاولة ثلّة من العلماء تطبيق المنهج التجريبي على النفس الإنسانية وقع جدل، مما أدى هذا إلى وجود موقفين متعارضين وانقسم المفكرون والعلماء إلى قسمين القسم الأول يرى أنه لا يمكن التجريب نظراً لوجود عوائق كثيرة تمنع ذلك والموقف الثاني يعارضه ويؤكد أن على أنّه يمكن تجاوز تلك العوائق وبالتالي التجريب على النفس البشري، انطلاقا من هذا وجب علينا طرح الإشكال الآتي: هل يمكن التجريب على النفس الإنسانية؟وهل يمكن دراسة النفس البشرية دراسة دقيقة وموضوعية؟

2) الموقف الأول:

يرى أصحاب الرأي الأول أنه لا يمكن التعامل مع الدراسات والبحوث النفسية على أساس أنها علم، بسبب وجود عدة عوائق مثل تعذر الملاحظة وعدم القدرة على تعميم القوانين، كما أنها لا تخضع لمبدأ الحتمية والسببية، وأهم من دافع عن هذا هم العالم الرياضي «مونتانيه» وعالم الأحياء «ميشال فوكو» «جون بول سارتر» «ويليام جيمس» وكانت حججهم كالآتي:

النفس غير مرئية وهي موجودة داخل الجسد، مما يصعب علينا ملاحظتها علميا ولا يمكننا الأخذ والعمل بما يقوله الإنسان المجرب عليه لأنه قد يغير أو يكتم ما يشعر به حقا، هذا ما يمنعنا من وضع قانون على سبيل المثال شخص يريد وظيفة معينة ولكنه يكره مدير تلك الوظيفة ولكن لكي يحقق مبتغاه عليه أن يتظاهر بالحب تجاه ذلك المدير حتى أن المرضى النفسيين عندما يذهبون إلى طبيب نفساني يكتمون ما يشعرون به حقا، وذلك بحكم خوفهم من الطبيب أو لعدم رغبتهم في انكشاف أسرارهم، هذا ما لاحظناه عند مرضى الطبيب النفساني «سيغموند فرويد» حيث كانوا يقاومون التنويم المغناطيسي لكي لا يعلم ما بداخلهم حتى وإن علم ثم يخبرهم بعدما يستيقظون من النوم المغناطيسي قد ينتحرون رفضاً لفعل الطبيب، يقول «مونتانيه» «لا أحد يعلم إن كنت جبان أو شجاع فهم لا يرونك» يقول «ميشال فوكو» «لا يوجد علم الظواهر الباطنية»

يقول «جون بول سارتر» «الحالة النفسية تتطور فلا تعطي فرصة للمنهج التجريبي لكي يتدخل فيها» فمن العوائق أن نفسية الانسان متغيرة وبالتالي لا نستطيع تطبيق الاستقراء فيها، وهي غير ثابتة على وضع معين فالإنسان يصبح بحالة نفسية معينة ويمسي بحالة نفسية أخرى مغايرة للحالة النفسية السابقة تماما، فالإنسان قد يغير حالته النفسية من الفرح إلى الحزن بكلمة واحدة فقط، هذا ما ينتج لنا منحنى متباين النقاط، مما يصعب وضع قانون واحد ينطبق عليه، كما أنها متغيرة من شخص إلى آخر أي أن ما يزعج شخص ما كوفاة صديق له قد يجعل شخص آخر فرحا، ومنه فهي ليست ثابتة عند الفرد



الواحد ولا عند مجموعة من الأفراد، هذا ما يمنع من وضع قانون عام وتطبيق الاستقراء يقول «ويليام جيمس» في هذا الصدد «كثيرا ما ننتقل من حكم إلى عزم ومن حب إلى بغضاء ومن ذكرى إلى ألم»

الحالة النفسية كيفية فهي معنوية وليست مادية ولا نستطيع الوصول إليها باستخدام الحواس، أي أن العلم الطبيعي قائم على قوانين كمية من أوزان وكتل يستطيع المجرب الوصول إليها والتحكم فيها والزيادة فيها والنقصان غير أن الحالات النفسية لا نستطيع أن نقيسها أو أن نزنها، فلا نستطيع أن نقول كم حالك بل نقول كيف حالك، وعادة ما نقول في حياتنا اليومية لا أستطيع أن أعبر كم أشعر بالفرح وهذا ما يولد نسبية عظيمة في البحث لأن معيار الفرح عند شخص ما تختلف عن معيار الفرح عند شخص آخر.

من الصعب الحصول فيها على قوانين دقيقة في ميدان الظواهر النفسية، ومن ثمة فهي لا تخضع لمبدأ الحتمية، لكونها تتميز بالوعي والحرية والنية، وهذه لها انعكاسات على الظاهرة النفسية، ومثال على ذلك إذا جاع شخص وسرق ، فإننا لا نستطيع أن نجزم بأنه كلما جاع فإنه يرتكب سرقة أو أراهن على ذلك كما أراهن في ميدان الظواهر الطبيعية كالحرارة وتمدد المعادن أو غليان الماء، وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نحصل في مجال الظواهر النفسية على أحكام عامة «قانون»؛ أي لا يمكن أن نعمم حكماً استخلصناه من ظاهرة أو ظاهرتين على جميع الظواهر، لأن الظاهرة النفسية نسبية، بمعنى اختلاف القناعات الشخصية والمشاعر والميولات.

3) النقد:

لقد وفق أصحاب هذا الموقف في الكثير من النواحي ولكن هذا الموقف ينفي التقدّم والتطور فقد جاءت نظريات جديدة أثبتت أنه يمكن التحريب على النفس وكذلك التنبؤ بسلوكات البشر والتحكّم فيها كما أنّ المنهج التجريبي مرن وليس ثابت في الملاحظة والفرضية والتجربة على منوال واحد، كما أن للحالات النفسية علم لأن علماء النفس استطاعوا أن يحلوا العديد من المشاكل النفسية كالهستيريا وغيرها من الحالات المرضية النفسية وبالتالي نستطيع أن نطبق المنهج التجريبي على علم النفس.

4) الموقف الثاني:

يرى أنصار الأطروحة الثانية يمكن تجاوز كل المعيقات والمشاكل التي تواجه الدراسات النفسية في تطبيقها للمنهج التجريبي، ويمكننا اعتبار علم النفس بحث في السلوكات الإنسانية من أجل التحكم فيه والتنبؤ وأهم من دافع عن هذا الموقف «فرويد» «بافلوف» «واتسون» «الماجندي» وكانت حججهم كالآتي:

لقد تمكنت الدراسات النفسية من فرض نفسها خصوصاً بعد ظهور علم النفس الفيزيولوجي الذي يعتمد على التجربة في المخبر كدليل على صدق الظاهرة أو كذبها وظهرت العديد من المدارس السيكولوجية نذكر منها المدرسة السلوكية للعالم «جون واتسون» ركزت على السلوك الخارجي للإنسان وردود افعاله في المواقف بدلا من دراسة الحالة الذهنية الداخلية، بحكم أن السلوك هو مرآة عاكسة لما يحدث في الداخل أي في الحياة الذهنية بكل موضوعية، وتدافع المدرسة السلوكية على أن السلوك الخاطئ، القلق المفرط، الفوبيا، الخطأ في الكلام أو الفعل هي نتيجة حوادث سابقة عاشها الإنسان وليست عبثية ، وإذا حللناها نعلم بكل ما يخبئه، وتسمى هذه الملاحظة غير المباشرة، وقد استوحى «واتسون» هذه الفكرة من عالم الفيزيولوجيا «بافلوف» المتحصل على جائزة نوبل في عام 1905 حول المنعكس الشرطي وطبقها واتسون مع الطفل البرت.



تجربة «بافلوف»: أحضر كلباً وكان كل ما يحضر له الأكل يقرع له جرسا، وكان الكلب عندما يأتيه الطعام يسيل لعابه، كرر هذه العملية عدة مرات وفي احدى المرات اقرع له الجرس دون أن يعطيه الطعام فسال لعاب الكلب، وكلما كرر قرع الجرس سال اللعاب حيث أن الكلب ربط رنة الجرس بالطعام وعليه استنتج «بافلوف» أنه من مثير خارجي استطاع جعل استجابته طبيعة لسلوك معين من طرف الكائن الحي.

تجربة «واتسون» وكانت مع طفل صغير عمره خمسة أشهر، وذات مرة عندما كان في المستشفى أحضر معه فأر ذو فراء أبيض ناصع جميل ووضعه بجانب الطفل ليتلمسه بكل براءة وحب، تكررت هذه العملية عده مرات وذات مرة أمر بقرع قطبي حديد واصدر صوت مزعج عند لمس الطفل للفأر وكانت النتيجة هي انهيار الطفل بالبكاء، وبتكرار تلك العملية حدثت نفس النتائج، ثم بعد ذلك أصبح يقوم بضرب قطبي الحديد دون لمس الطفل للفار ولكن بكى الطفل، كررها عدة مرات وكان الطفل يبكي في كل مرة، وهذه نتيجة لملاحظة قام بها واستنتج كيفية تشكل الفوبيا والمخاوف وكيف أنه يكفي دراسة سلوك الإنسان وتحليله لمعرفة ما يجري بداخله، وكانت هذه قاعدته المستخلصة : الحوادث السابقة تشكل سلوك الفرد ويجب دراستها وتحليلها، وعمم هذه النتائج وأصبح بمجرد رؤيته لكائن حي ذو فراء أبيض يبكي لذلك يقول «واتسون» «علم النفس كما يراه السلوكي جذع علمي تجريبي محض هدفه التنبؤ بالسلوك وضبطه» ويقول أيضاً « السيكولوجيا هي علم السلوك»

مدرسة التحليل النفسي بقيادة «سيغموند فرويد»:

وهي من بين المدارس التي اخضعت الظاهرة النفسية للتجربة وقام باكتشاف نظرية اللاشعور و معالجة مرض الهستيريا النفسي الذي هو تحول الانفعالات النفسية الحادة إلى امراض فيزيولوجية مثل الحزن الشديد الذي يتسبب في فقدان البصر أو فقدان القدرة على الكلام أو شلل في الجسم بعدما كان الأطباء يعالجون المرضى بالهستيريا بالإبر والأدوية لاعتقادهم أنه مرض فيزيولوجي، ولكن مع فرويد تبين أنه مرض نفسي من بين هذه التجارب هي على الطفلة فروليف آنا التي اصيبت بالعمى لحزنها الشديد والبكاء الدائم التي كانت تخفيها عن والدها الذي كان على فراش الموت ومن جراء ذلك الكبت للبكاء اصيبت بالعمى لأنها كانت تبكي وتخفي دموعها على ابيها لكي لا يعلم أنها حزينة ففي المرة الأولى قام فرويد بتطبيق المنهج التجريبي وافترض أنه مرض عضوي فقام بفحص القرنية والشبكة وبؤرة العين ووجدوا كل شيء سليم واعطى فرضية ثانية على أنه مرض نفسي وانها فقدت بصرها كرد فعل عن تأثير اللاشعور وقام بتجريب عدة طرق عليها منها التنويم المغناطيسي فلم ينجح ثم قام بتجريب طريقة التداعي الحر للأفكار ونجح معها استنتج قانون عام وهو أن المكبوتات إذا تركت قد تصبح هستيريا، لقد اعطى قاعدة عامة وهي تقسيم الجهاز النفسي

1. الهو: وهو مستودع الطاقة الغريزية وهو محل العقد.
2. الأنا: وهو الذات وهو الحكم والموازن بين الأنا الأعلى والهو
3. الانا الاعلى: وهي مجموع من الروادع لغرائز الهو وفيه الدين والمجتمع والقانون والاسرة وقام فرويد بإعطائنا اكتشاف ما يوجد في اللاشعور وعندما جربها نجحت وأصبحت قواعد منها تفسير الاحلام وزلات اللسان والاقلام أي الهفوات والنسيان.

الاستبطان أو التأمل الباطني وهو تأمل المرء لنفسه ودراسته لشعوره الداخلي وأحواله النفسية، أو هو ملاحظة الفرد ما يجري في شعوره من خبرات حسية أو عقلية أو انفعالية ملاحظة منظمة صريحة تستهدف وصف هذه الحالات وتحليلها أو تأويلها أحيانا، فنحن الذين نعيش هذه الحالة ونحن الدارسين لها فكأن الشعور يتوزع بين الحادث الذي نعيشه كالخوف مثلا وتأمل هذا الحادث فالنفس تنقسم إلى متأمل ومتأمل، لذلك تسمى هذه الطريقة بطريقة الملاحظة الداخلية. أو الاستبطان ومن أبسط صورها وأقلها تعقيدا في حياتنا اليومية ما نفعله عندما تخبر صديقا أو طبيبا عمّا نشعر به من آلام أو ضيق أو حين نذكر لشخص ما نراه أو نسمعه أو نتذوقه وقد يتعلق هذا الاستبطان بالحالات الشعورية الحاضرة



أو الماضية كأن تطلب من شخص أن يصف لك حالته وهو يشاهد مباراة في كرة القدم أو أن يذكر لك حزنه عن صديق توفي منذ مدة ومن الملاحظ أن استغراق الفرد في أفكاره وهمومه وانشغالاته لا يسمى استبطاناً، ومن هنا لابد من التمييز بين نوعين من الاستبطان استبطان عفوي: وهو تأمل سريع ، مبهم ، غير مقصود. استبطان ارادي: وهو ناتج عن ارادة وقصد حيث يمعن الانسان النظر في الحادث النفسي ويحلله محاولا تبين دوافعه وأسبابه والكشف عن القوانين التي تجمعه بأمثاله ويخضع لها مع سواه والمهم في طريقة الاستبطان هو أنّ العارف والمعروف شيء واحد وقد كانت هذه الطريقة هي المستعملة عندما كان الشعور هو موضوع الدراسة في علم النفس.

3) النقد:

على الرغم مما أتى به أنصار هذا الموقف من حجج صحيحة إلا أنه يتخلله بعض السلبيات والنقائص منها يقول «جون كامني» «يستحيل التنبؤ مع البشر» كما أن النفس جوهرها الشعور وليس السلوك هم اهملوا دراسة الحال الباطنية كما أن النفس ذاتية مختلفة من إنسان إلى آخر مما يمنع تطبيق مبدأ الحتمية ثم أن الأفراد يختلفون فيما بينهم في قدرتهم عل تأمل أنفسهم كما أنّ الاستبطان لا يفيد مع الأطفال وضعاف العقول.

6) التركيب:

بعد أن درسنا الموقفين ورأينا ما جاء من حجج في كل منهما وانتقاد السلبيات التي جاءت فيهما، رأينا أن الموقف الأول يرى بأنّه لا يمكن تطبيق المنهج التجريبي عل النفس البشرية، في حين أن الموقف الثاني يعارضه ويقول أنه يمكن تطبيق المنهج التجريبي عل النفس، ولكن يجب علينا القول أن الدراسات النفسية تطوّرت وأثبتت إمكانية دراسة النفس دراسة تجريبية، لهذا يجب علينا تغليب الموقف الثاني ولكن يجب عل الباحث أن يتحلّى بالروح العلمية واكتساب المادة المعرفية المطلوبة للقيام بالأبحاث والتجارب، كما أنّه مطالب بمراعاة الأخلاق كأن لا يتعدى حدوده وألّا يجازف إذا تعلّق الأمر بالموت أو المرض ولا ينحاز لأي جهة أو لا يستعمل نتائج أبحاثه في العنف أو العنصرية وأن يبحث لأجل العلم وليس لأجل المال والجاه.

7) الخاتمة:

وفي الأخير نستنتج كحل التساؤل المطروح اعلاه أن الدراسات النفسية قد فرضت هيمنتها وأثبتت أنها قابلة للتجريب ولكن هذا ضمن إطار محدد، فلا يمكن أن نهمل الآراء التي قالت أنه لا يمكن التجريب ونتعلم منها ونأخذ منها السلبيات ونحاول تجاوزها كالتحذير من تجاوز الأخلاق أو التعدي على السلامة البدنية أو النفسية بغرض التجريب، ومن جهة أخرى نجد أنّ العلماء قد استجابوا لهذا وتمكّنوا من استخراج نتائج مذهلة ونظريات في الظواهر النفسية والسلوكية وقد أتمّوا مراحل المنهج التجريبي ولهذا نقول أن الدراسات النفسية يمكن لها أن تنال شرف التسمية بالعلم ونقول عليه علم النّفس